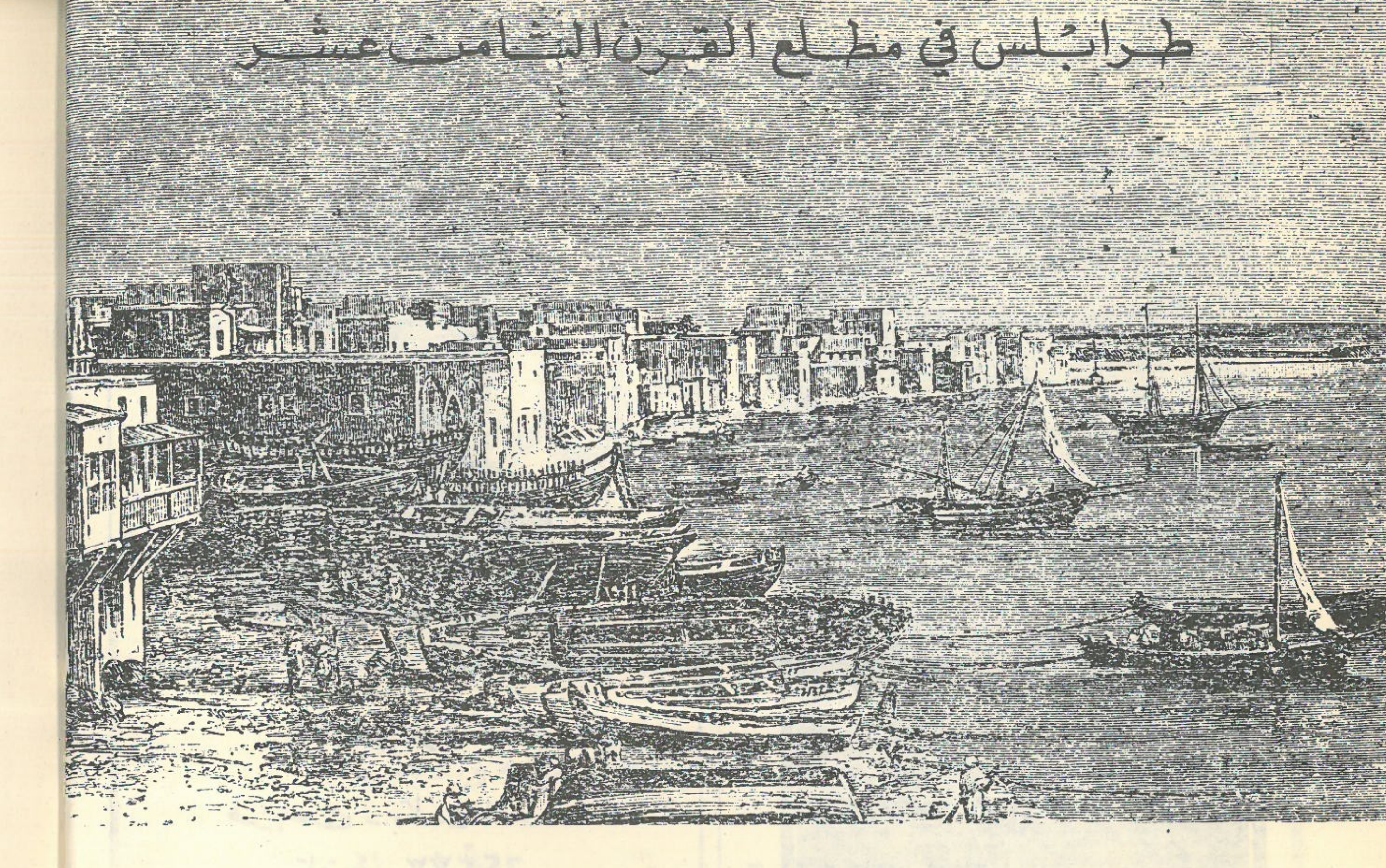


قراءة في التحفة النابلسية :

علماء وولاة وجنة المولوية

كيف كانت طرابلس عام ١٧٠٠ في مطلع القرن الثامن عشر ؟ لحسن الحظ فان زائرا كبيرا جاء الى طرابلس في ذلك التاريخ وسجل انطباعاته ومشاهداته ، فخلف لنا وثيقة فريدة من نوعها ، أما الزائر فهو الشيخ عبد الغني بن اسماعيل النابلسي ، عالم عصره الشهير ، وأما الوثيقة فهي كتابه المعروف : « التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية » وفيها الكثير من الاخبار والحكايات عن أهل المدينة ومساجدها ومدارسها والمولوية وبساتينها ..

مولوية طرابلس .

المؤلف وحياته

ولد عبد الغني بن اسماعيل النابلسي عام ١٠٥٠ – ١٦٤١ م في دمشق في عائلة انجبت العديد من العلماء ، وقد انصرف عبد الغني ، تبعا لتقاليد العائلة الى طلب العلم فأظهر منذ حداثته ميلا الى كتابة الشعر ، ثم ما لبث ان انضم الى الطريقة النقشبندية والى القادرية فيما بعد ، وقد بقي على ولائه للقادرية طوال حياته . كما ان عبد الغني كان يعتبر من الموالين للدولة العثمانية ، وهذا ما يظهر في علاقته الودية مع الولاة ، التي نتبينها ابان رحلته . ويبدو انه كان مولعا بالاسفار والرحلات فقد قصد « دار الخلافة » في سن الخامسة والعشرين ، وليس معروفا حتى الان ما اذا كانت دار الخلافة هي بغداد ام الاستانة . الا ان عبد الغني النابلسي ، بالرغم من الاسفار كان يفضل الاستقرار في دمشق وقد امضى السنوات الاخيرة من عمره فيها حتى كانت وفاته عام ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م . وقد دفن في الصالحية ، واقفلت المدينة في ذلك اليوم .

مؤلفاته ورحلاته

كان النابلسي اديبا غزير الانتاج ، فقد ترك ديوانا كبيرا ، بالاضافة الى مؤلفات في الدين والتصوف والادب . ويذكر الذين اهتموا بدراسته ومنهم المستشرق كارل بروكلمان انه ترك ما يقر بمن المئة والخمسين الى المئتي كتاب . ومن بين مؤلفاته تلك التي كتبها واصفا رحلاته من خلالها ، فترك لنا بذلك سجلا مفصلا عن الحياة الثقافية والاجتماعية والمدنية لبعض الاقطار في المشرق العربي ، بين المنتصف الثاني من القرن السابع عشر والربع الاول من القرن الثامن عشر . ومن بين اثاره : « حلة الذهب والابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز » ، وهذا الكتاب لم ينشر حتى الان . ثم كتب « الرحلة الانسية في الرحلة القدسية » وهو كتاب مهم لوصفه الاماكن المقدسة ، واعتباره مرجعا فريدا في موضوعه لتلك الحقبة . وقام النابلسي بعد ذلك برحلة طويلة زار خلالها سوريا ولبنان ومصر والحجاز ، واستمرت الرحلة (٣٨٨) يوما وقد سجلها النابلسي في كتاب : « كتاب الحقائق والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » .

التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية

الرحلة الطرابلسية

اما الرحلة الطرابلسية فقد بدأها المؤلف في ٦ ايلول من عام (١٧٠٠) وكتبها في السنة التي تلت . وكتب النابلسي رحلته بأسلوب السجع الرائج في ذلك الزمان وضمنها ٤٨ قصيدة من نظمه منها الكثير في وصف معالم طرابلس مما سنذكره فيما بعد . ويمكن ان نعتبر الرحلة من نوع الادب الذي يحتوي على المذكرات الشخصية . والكتاب اقرب الى الادب منه الى الكتب التي يتركها الجغرافيون . فالنابلسي يهتم بالمدن فقط ، فلا يهتم بوصف ما يصادفه في طريقه من ملامح الارض وتفاصيل الطبيعة . كما انه لا يصف المدن وصفا مسهبا ، بقدر ما يصف حياتها الفكرية والادبية واجتماعاته بوجهائها . الا انه يعدد المساجد والزوايا والحمامات ، وبعض المعالم الدينية .. بالرغم من ذلك فان اهمية كتاب الرحلة الطرابلسية كبيرة للغاية فهي تقدم لنا وصفا لحياة هذه المدينة في عام ١٧٠٠ م بالضبط ، والكتاب يحكي لنا الكثير عما كانت عليه هذه المدينة في ذلك الوقت واخبار اهلها ومعالمها ومساجدها . كذلك اخبار مكتباتها وبعض ما تحتويه من الكتب والمخطوطات .

هدف الرحلة

يبدو ان الشيخ النابلسي كان يهدف من خلال الرحلة الاتصال ببعض المريدين والاتباع ، فقد التقى في طريق رحلته عددا من العلماء والاصدقاء والتلاميذ . وفي طرابلس التقى المؤلف والى المدينة ارسلان محمد باشا ، ويبدو ان علاقة قوية ربطت الشخصين منذ وقت طويل ، وهذا ما تدل عليه الكيفية التي تلقى

بها الوالي القادم عند وصوله • وقد نزل النابلسي في داره خلال اقامته في طرابلس •

الطبعة الالمانية

ان المعهد الالماني للابحاث الشرقية هو الذي اشرف على نشر كتاب عبد الغنى النابلسى المسمى « التحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية » وقد حقق مخطوطات الكتاب المستشرق الالماني هربيرت بوسه وقدم له بدراسة تحدث فيها عن المؤلف وحياته ومؤلفاته ، ولا بد من التنويه بأن هذه الطبعة قد جاءت مثالا للاتقان والعمل الجدي ، وهي نتيجة لجهد اكاديمي اكيد •

اما المخطوطات التي اعتمد عليها المستشرق بوسه فهي التالية :

– مخطوطة محفوظة في مكتبة جامعة برنستون •

– مخطوطة محفوظة ضمن مجموعة المتحف البريطاني في لندن•

– مخطوطة محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق •

الهدف في المقدمة

يوضح الشيخ النابلسي هدفه من الرحلة في مطلع الكتاب فيقول : « قد اقتضت رحلتنا من دمشق الشام زيارة اخواننا من ذوي المجد والاحتشام الى بلاد طرابلس المحروسة غربي دمشق المأنوسة ، ذات الاجلال والاكرام المعروفة بطرابلس الشام بين الانام • وقد دعينا الى ذلك باشارة كانت من بعض الحكام في هاتيك البلاد ، قصدا للنفع العام • وأردنا ان نجول في السواحل الغربية المشحونة بأفاضل الاوقات والايام للتبرك بزيارة الصالحين من كل ذي حال ومقام »•

هكذا يتضح لنا ان من وراء الرحلة هدفا وهو الالتقاء ببعض المعارف والاصدقاء • كما ان الرحلة هي نتيجة لدعوة بعض الحكام ، ولا بد فان المقصود بذلك هو الوالي ارسلان محمد ، الذي سيرد ذكره فيما بعد •

الطريق الى طرابلس

سنحاول ان نذكر جميع المدن والقرى التي سلكها ، لمعرفة طبيعة الرحلات في ذلك الزمان : ايلول من عام (١٧٠٠) م •

خرج الشيخ من دمشق مع جماعة من الاخوان وطائفة من الاعيان ، فكانت اول قرية يمر بها مع جماعته هي « داريا الكبرى » كما يسميها • ثم سارت الجماعة فوصلت الى قرية يقال لها « كفر الدبس » او « كفر قوق الدبس » وهي في وادي التيم • ثم سرنا حتى وصلنا الى قرية « ريشيا » ، ولعل المؤلف يقصد «راشيا» خصوصا انه يذكر قلعتها السامية ، تحيط بها بيوت الفلاحين •

ويبدو ان الشيخ قد سار في طريق شاقة بعد ذلك ، فيقول : « ثم توجهنا بعون الله على المسير ما بين هاتيك الاودية والجبال التي لا يكاد الطير بينها يطير •• »حتى جادت قريحته بهذا البيت :

كلما قلنا قطعنا جبلا
من جبال الارض يبدو جبل

ولا بد ان نذكر هنا ان سرد الشيخ لتفاصيل رحلته يتخلله الكثير من الشعر ، فلا تخلو صفحة من مجموعة من الابيات التي تأتي حسب الحال •

ثم يصل الشيخ وجماعته الى نهر الليطاني ويسميه « اللاطاني » ، حيث قضى هناك مع جماعته بعض الوقت ثم مر بقرية مشغرا ، فارتاح من عناء السفر بعد ان قضى ليلة فيها • ثم تابع رحلته مرورا بجبل عامل حتى وصل الى قرية « كفر ملكا » وكانت المحطة التالية صيدا •

الاقامة في صيدا

وصل الشيخ الى صيدا وقد تملكه التعب الشديد فأراد ان يرتاح من عناء السفر اولا •• وشاهد الشيخ في هذه المدينة ، اول ما رأى ، بحرها، فجذبت نظر الشيخ الدمشقي الذي يرى البحر في اسفاره فقط •

التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية

في صيدا ، نزل الشيخ في منزل الاديب لطفي جلبي • ثم حضر مجلس « محافظ ثغر صيدا » محمد قبلان باشا ، فطالت المنادمة حتى انتصف الليل • وفي اليوم التالي التقى عددا من علماء المدينة ووجوهها، نذكر منهم مفتي صيدا « الشيخ رضوان » و « الشيخ عبد الرحمن الرزاقي » • وكان يوم جمعة فصلى صلاة الجمعة في الجامع الكبير المسمى « بالعمري » وبعد الظهر زار مكانا خارج البلدة ، بدعوة من الباشا ، يسمى «الفسقية»• مكث الشيخ في صيدا اسبوعا زار خلاله اماكن متعددة وقام برحلة بحرية واجتمع بالعديد من الاصحاب فتبادل معهم الكثير من ابيات الشعر وناقش مسائل فقهية • وهذه نقطة مهمة يشتمل عليها كتاب الرحلة ، لانها تدلنا على نوع المسائل التي كانت تشغل باله وبال من صادفهم من العلماء وهي تدل على روح ذلك العصر والمدى الذي وصلت اليه مسائل الفقه • وقد اورد الشيخ هذه المسألة: « وقد سئلنا في هذا المكان ، وهو مكان الاعين السبعة، عن الصلاة خارج البلدة ، هل الصلاة فيه افضل من الصلاة في البلدة ام لا ؟ فأجبنا بأن الصلاة فيه افضل لما روى أبو داوود السجستاني بسنده عن ابي سعيدالخدري •• »

كذلك يذكر الشيخ الكثير من المسائل النحوية ، وكان عالما من علماء اللغة فى صرفها ونحوها • لذا فان الاسئلة تتوجه اليه ليجيب عنها• كما يذكر بعض اسماء الكتب ومنها « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » تصنيف الشيخ الامام شمس الدين ابي عبد الله محمد بن ابي طالب الدمشقي • وهو كتاب في الجغرافيا •

بالاضافة الى ذلك يذكر قصصا ، تدلنا على عقلية ذلك الزمان ومن هذه القصص نذكر واحدة ذات دلالة : « اخبرني بعض الناس ان في جبل الدروز قرية كانت في اعلى الجبل فبات اهلها ليلة، فلما اصبحوا وجدوا القرية وجميع ما فيها مع اهلها كلهم وبيوتها صاروا في اسفل الوادي هناك ولم يخرب منها شيء ولا تضرر احد ولا سقطت شجرة ، وحتى الان باقية كذلك واسمها الزاحلة »• ونعتقد بأن المقصود هو زحلة الحالية •

زوايا ومساجد صيدا :

قبل ان يغادر صيدا ، يعدد الشيخ النابلسي زواياها ومساجدها ، فيقول بأن عدد مساجدها ستة وهي : العمري – جامع الكيفية – جامع ابن قطيش – جامع البحر – جامع السوق او جامع البطاح – جامع المحتسب • وفي صيدا ثلاثة حمامات : حمام السوق – حمام الشيخ – حمام الامير •

واشار عليه بعض اصحابه ان

التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية

يسافر من صيدا بحرا ، فلم ترق له الفكرة ، فقال في ذلك شعرا :

لن نركب البحر الخضم مهابة
لجلال خالقه فمنه نفرق
نخشى به غرقا ونخشى اسره
بركوبنا فهو العدو الازرق

فضل الشيخ طريق البر ، فكانت اول القرى التي صادفها هي قرية « عانوت » فعانى فيها القلق والتعب ، فغادرها بعد ان بات ليلته فيها ٠ وكانت القرية التالية « دير القمر » ، فبات فيها ليلة متعبة مرهقة ايضا ، ثم غادرها في الصباح فسار موكبه وموكب رفاقه حتى بلغ « نهر الدامور» ثم اشرف على البحر حتى لاحت قبة « الاوزاعي » ٠ ووصل الى بيروت وقت العصر ٠

ونلاحظ ان رحلته من صيدا الى بيروت قد كلفته يومين ، كما نلاحظ انه سلك طريق الجبل وليس الطريق الساحلي ! وعند وصوله الى بيروت نزل في سرايا حاكم البلدة وهي « عمارة الامير عساف » ، وقد عمر ما يحيط بها من عمران الامير فخر الدين بن معن ٠

في بيروت

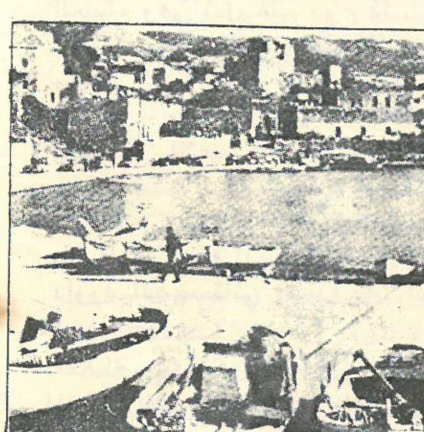
كما في صيدا ، كذلك في بيروت التقى الشيخ عبد الغني النابلسي العديد من العلماء منهم السيد حسين النقيب ، والشيخ محمد الشهير بابن الشويخ وهو صاحب زاوية كما يبدو من كلام المؤلف ، ومنهم احمد جلبي المعروف بابن سعادة ، وشقيقه الشيخ عمر بن سعادة ٠

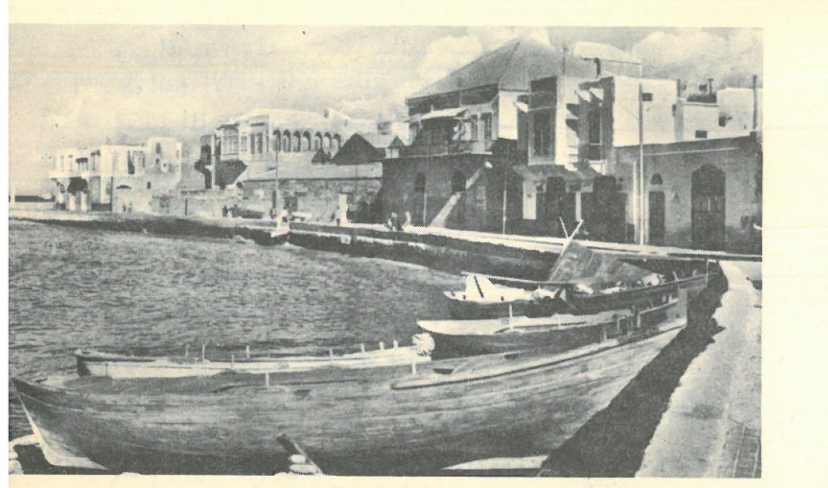
وقد رأى في بيروت جوامع وحمامات كثيرة ، ويذكر اربعة جوامع : الجامع الكبير – جامع الامير منذر – جامع الامير عساف – وجامع البحر ويسمى بالجامع العمري ٠ ويذكر اربعة حمامات : حمام الامير فخر الدين – حمام القيشاني – حمام الاوزاعي – والرابع قديم لا اسم له ٠

السفر الى طرابلس

غادر الشيخ بيروت بعد يومين من وصوله اليها ٠ وكان اول ما صادفه عند مغادرته قبة عظيمة يقال لها مقام الخضر ، ثم جسر عظيم يقال له جسر بيروت ٠ ثم سار بين البساتين حتى وصل الى نهر يسمى « العديبية » ثم نهر « انطلياس » ثم نهر « الكلب » فيقول فيه الشعر ٠ ثم يصل الى نهر « ابراهيم » حتى يصل الى بلدة « جبيل » ويقول : « وقد اخبرنا اهلها بأن بها مكانا فيه عواميد كثيرة ٠٠ »٠ وقد مكث فيها ليلة ، وغادرها في الصباح وسار مع اخوانه حتى وصل الى « البترون » وسار دون ان يمكث فيها حتى وصل الى قرية تسمى « قلمون » ، فاستقبله اهلها بالتقدير ، لكنه لم يبق فيها لانه وجد ان طرابلس قريبة ، فسار حتى وصل الى طرابلس فكان في استقباله جماعة من طرف الوالي الذين حملوه الى قصره ، وارتاح من عناء السفر ٠

كانت الطريق الى طرابلس طويلة ، عبر العديد من المدن والقرى ، ووصل الشيخ اليها ، وهي المراد من السفر ، فاستقبله عند ابوابها موفدو الوالي ارسلان محمد باشا ، وكانت اقامته في قصره الجميل ٠ وزاره في اول وصوله عدد من الافاضل والعلماء ، يذكر منهم : الشيخ سليم ، الشيخ ابراهيم النقشبندي الميقاتي واخوه يحيى ، ثم التقى بعد ذلك عبد اللطيف افندي بن سنبل واحمد ابن مفتي طرابلس هبة الله ٠ ويذكر اسماء بعض الوجوه مثل : احمد الحموي ، مصطفى بن خضري اغا ، الشيخ عبد الله السري ، الشيخ محمد الرحبي ، الشيخ علي بن كرامة ٠





مسائل فقهية ودينية

ذكرنا سابقا ان الهدف من الرحلة هو لقاء بعض العلماء والمريدين والتلاميذ ، ولا بد ان تسود لقاءات الشيخ عبد الغني الاحاديث العلمية الدينية والاحاديث الادبية ونحوها ٠ ويسرد المؤلف بعض احاديثه ، نورد مختصر بعضها ، يدلل من خلالها على المسائل التي شغلت ذهنه واذهان معاصريه ٠ ويورد سؤالا طرحه عليه يحيى افندي قاضي طرابلس ، وهو : رجل له ثلاث نسوة، فقال لواحدة : « اذا طلقتك فالاخريان طالقتان ، ثم قال للاخرى مثل ذلك ٠ ثم قال للثالثة مثل ذلك ٠ ثم طلق الاولى واحدة ٠ فانه يقع على الاخرى واحدة واحدة ولو لم يطلق الاولى لكنه طلق الوسطى واحدة ٠ فانه يقع على الثالثة والاولى واحدة واحدة ٠ ثم تعود على الثالثة والوسطى على كل واحدة اخرى ، ولا يقع على الاولى شيء سوى الطلاق الاول ٠٠٠ الخ ٠

ويجيب النابلسي بغير ذلك حول المسألة ، ما لا يمكن ذكره هنا لتفصيله ٠٠ وقد كانت للشيخ النابلسي لقاءات اخرى مع مفتي طرابلس هبة الله ، ومع بعض العلماء الاخرين ٠ ويذكر انه تلقى خلال اقامته رسائل من بعض مريديه في دمشق ، وكان تلقى مثلها في صيدا ، ولا يذكر كيف وصلت هذه الرسائل ٠

معالم المدينة

يذكر الشيخ عبد الغني النابلسي زيارة قام بها بصحبة الوالي الى مكان يدعى « عين اصلان » حيث يقوم نهر عظيم يصب في البحر يسمى نهر « الغضبان » ٠٠ ثم سرنا على ساحل البحر ورأينا هناك الابراج الرفيعة السامية البديعة تزهو بتلك الطلعة ، وامامها مكان رحيب وفناء واسع خصيب يسمى بالمرج الاخضر ٠

تجول الشيخ في المدينة كثيرا ، وتمكن من ذلك خلال اقامة امتدت اسبوعين ، لكنه لا يفصل كثيرا في روحاته وغدواته ، وبالرغم من ذلك نستطيع ان نتلمس شكل طرابلس وحياتها ومعالمها في ذلك ٠

ويذكر الشيخ انه خرج في نزهة فمر بحمام يقال له حمام عز الدين ، ثم يقول في مكان اخر : « ثم في عشية النهار ذهبنا راكبين الى المينا وتمتعت بمحاسنها الابصار ، ونزلنا في قصر رفيع ومكان مشرف بديع ، دعانا اليه حبيبنا حسين آغا ، آغاة المينا ، وهو مطل على ذلك البحر المتلاطم الامواج وشبيه بسموه بهاتيك الابراج ٠٠ » ٠

وقام الشيخ بنزهة بحرية بصحبة صديقه الحاج « نور الدين بشر » فنزل الى البحر لاصطياد السمك ، ويبدو ان هلعه من البحر الذي رافقه عند خروجه من صيدا ، قد زال عنه في طرابلس ٠ ويقول : « وقد رأينا على حافة المينا انواع المراكب والسفن ، وقد ذكر لنا اسماءهم صديقنا الحاج نور الدين الطرابلسي ٠٠»٠

ويعدد اسماء المراكب وتبلغ العشرين اسما وهي : ماعونة ، غلدون ، غراب قرا مرسل ، زربونة ، شائقة غلياطة،سنبكلية،قايق،زربونة ، معاش ، نقيرة ، شختورة ، فلوكة ، نقلية ، شوطية ، شنبر ، قارب ، برمة ، شكنباية او شكبناية ٠

الجوامع والزوايا والحمامات

في يوم جمعة سار الشيخ عبد الغني الى الجامع الكبير : « وهذا الجامع متسع الجهات ، قيل ان اصله كان كنيسة ، وله في فنائه صفف

ورواقات ، وله من كل جانب من جوانبه الاربع باب عظيم ، وهو في وسط المدينة ، وفي وسط فنائه بركة ماء كبيرة ، عليها قبة عظيمة بأربع عضائض ،كل عضاضة يحوطها اربعة رجال »٠

ويقول ان مدارس وزوايا ومساجد طرابلس لا تعد ولا تحصى ٠ وانه كان بها ثلاثمائة وستون مدرسة ، الا ان اكثرها متهدم ومهجور وقت زيارته لطرابلس ويقول ان الجوامع التي تقام الجمعة فيها اثنا عشر : الاول الجامع الكبير ، الثاني جامع طيلان وهو جامع لطيف نير واسع خارج البلدة قريب من الجبانة ، وتكوينه غريب ، الثالث جامع المحمودية ٠ جامع الطحال ، جامع الغناشاه ، جامع البرطاسية ، جامع الاويسية ٠ جامع التوبة ، جامع محمود بيك ، جامع التفاحي ، الثاني عشر جامع القلعة ٠

المولوية

اعجب الشيخ بالمولوية وموقعها ، ووصفها وصفا مفصلا نثبته لاهميته : « ارسل الينا حضرة الباشا ودعانا الى المولوية ذات الاشجار العطرية ، فجئنا اليها فرأيناها كجنة النعيم ، وبها من الماء اللطيف البارد الذي هو شفاء لكل قلب سقيم ، وهي مرتفعة البنيان عظيمة الاركان ، تجري من تحتها خمسة انهر ، وهي اشبه ما تكون بالربوة في دمشق الشام ٠ وهناك مقعد لطيف عال يفوق سناه على بدر التمام ، يحاكي صفة العوافي المطلة على تلك الرياض العاطرة الزكية ، والانهار السبعة الجارية »٠

ثم يقول في مكان أخر : « وفي هذه المولوية اماكن مرتفعة منيعة ، وبها ثلاثة مقاعد زاهرة لطيفة : المقعد الاول متسع ذو طوان جديد ، يفوق بمحاسنه البدر ، وامامها مسقية صغيرة من الرخام الابيض ، يفيض منها الماء الى مسقية اخرى ، وامامه ايضا مكان مرتفع معد لاجل سماع الدراويش ٠٠ »

الحياة في طرابلس

يذكر المؤلف تلك الدعوات التي تلقاها ، فلباها ، من بعض الاصحاب والوجهاء ، وتلخص لنا احاديثه في هذا المجال بعض جوانب الحياة الاجتماعية ، فيقول انه تلقى دعوة من مصطفى خضري آغا ، فذهب الى داره وهي قرية قريبة من السرايا ٠٠ فرأيناها كالجنة دار السلام ذات مياه واشجار ورياحين ، ويبدو ان حياة الترف كانت موجودة على اي حال ٠٠

من ناحية اخرى يبدو من خلال احاديث المؤلف ان الاهتمام بالفكر وعلوم الدين ومسائل الجغرافيا ، لم يكن غائبا عن علماء طرابلس ، فيذكر العديد من الكتب المخطوطة التي وجدها في مكتبات وجهاء طرابلس ، ويعود الى ذكر ذلك ، كلما زار منزل واحد من اصحابه ومعارفه من العلماء ٠ كما ان نقاشاته غالبا ما تدور حول مسائل شرعية وفقهية وعلمية ولغوية ٠ وهذا يعكس لنا ، على الاقل ، حياة فئة من اهل طرابلس آنذاك وهي فئة العلماء ٠٠ ولا ننسى ان المؤلف شيخ صوفي لا يليق به ان يخوض في شتى المسائل ، الا ان ما نلاحظه بوجه خاص ذكره الولائم وبعض اصناف الطعام، ونشير الى انه لا يذكر المراة بتاتا ، ولا يذكر انه صادف واحدة ، بل يذكر المراة فقط عند الخوض في مسائل الشرع وخصوصا عن الخوض في مسائل الطلاق ٠

السفر من طرابلس الى بعلبك ودمشق

غادر المؤلف طرابلس بعد اقامة دامت اسبوعين ، فسلك طريق الجبل، يقول : « ولم نزل سائرين حتى وصلنا هناك الى قناطر سامية وابنية عالية ، يجري فوقها نهر عظيم ، هو الذي يدخل الى بلدة طرابلس المحمية٠ ويقال ان هذه القناطر من بناء الجاهلية ، بالقرب منها جسر عظيم واسع مرتفع ، يجري تحته نهر عظيم ايضا يقال له « جسر المحمودية ،

التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية

وعلى هذا النهر من اول الوادي الى اخره طواحين لا تستقصى وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى ٠ ثم مررنا على جسر صغير يقال له « المخاضة » فنزلنا وصلينا العصر وسرنا حتى وصلنا الى قرية يقال لها « ايعال »٠

ويتركها ليواصل المسير في اودية وجبال حتى يصل الى « اهدن الجوز » ثم يواصل السير صعودا هبوطا ليصل الى « عيناتا » ويشعر فيها بالبرد والزمهرير ، ويذكر ان اهلها نصارى٠ حتى يصل الى بعلبك فيجعلها محطة٠ ثم يغادرها فيمر بقرية « تمنين » و « النبي ايليا » وقرية كبيرة اسمها « الفرزن » ثم « الكرك » ويذكر في طريقه الاماكن التالية : نهر اللاطاني ، بر الياس ، وادي المجدل ، وادي قرنانا ، وادي بردا ، جسر الدمراني٠ وهي القرى والامكنة التي مر بها قبل الوصول الى دمشق ٠

الشعر

اشرنا الى ان الشيخ النابلسي يذكر في كتاب رحلته الشيء الكثير من الشعر ، والمهم في ذلك ان الشيخ الشاعر الصوفي صاحب الرحلة ، عادة ما يستعيض عن الكلام المنثور او الكلام المسجوع بقول الشعر او بذكر بعض اشعار اصحابه ٠ ومثال على ذلك ، فانه بدل ان يذكر مجلس الباشا ارسلان محمد والي طرابلس ، يذكر القصيدة التي قالها بخصوص هذا المجلس ، فالقصائد ليست اذا اضافات بل هي من صلب الرحلة وفي اساسها ٠

ومن ناحية اخرى فان قصائد الشيخ وقصائد اصحابه ، مادة مهمة لا يستهان بها ، من الشعر القليل الذي وصلنا في وصف طرابلس ٠ ويمكن ان نطلق على مجمل هذه القصائد تعبير : شعر مدح المدن ، المعروف في العصور السالفة ٠

وليس ثمة مجال لذكر مجمل الابيات التي تصف معالم طرابلس ، الا اننا سنكتفي بذكر ابيات من وصف المولوية :

المولوية جنة في
الحر حيث الحر نار
تزهو طرابلس بها
ومن الزهور لها ازار
يا حسن واديها الذي
كأس النعيم به تدار
ومعاطف الاغصان قد
مالت واثقلها الثمار
هي جنة الفقراء اهـ
ل الله ثم لهم قرار
وطريقها مثل الصراط
وما لسالكه قرار

موقع الرحلة

تقدم لنا رحلة النابلسي وصفا فريدا لطرابلس سنة (١٧٠٠) م وتقدم الينا اضافة الى ذلك صورة شاملة عن الحياة المدنية والثقافية في مدن المشرق ، وبشأن المراجع فانها تسد فراغا ، في حقبتها ، بخصوص تاريخ مدينة طرابلس ، بالرغم من شدة تحفظ الشيخ التي نلحظها في مواقع عدة من الكتاب ٠ فهو لا يشكو ولا يتذمر ٠

وقد اشرنا سابقا الى ان كتاب الرحلة يعطينا فكرة عن الحياة العقلية وهموم « مفكري » ذلك العصر ، وصفحات الرحلة بحد ذاتها تنطوي على مادة غزيرة في هذا المجال ٠

والواقع ان كتاب التحفة النابلسية » قد اضيف منذ وقت غير قصير الى مجموعة المراجع المهمة في موضوعها ٠

التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية